لفتات إنسانية في ثنايا معرفية
خبرة بحثية تطبيقية في توظيف الذكاء العاطفي في المنهاج المدرسي

جمانة هندي

بدأت حكايتي في هذه الخبرة البحثية التطبيقية بمزيج من الحماس والفضول، حيث علمت من صديقتي أن هناك بحثاً إجرائياً عن الذكاء العاطفي، فوافقت على المشاركة دون تفكير بوحي من انطباعاتي السابقة عن نشاطات مركز القطان.

بداية اجتمعنا، نحن مجموعة المشاركين من معلمين ومعلمات وباحثين، لمناقشة وقراءة بعض الدراسات والمقالات التي كتبت عن الذكاء العاطفي، شعرت أن هذا الموضوع صعب جداً، ولا يمكن تطبيقه في السياق التربوي الموجود لدينا، أو بلغة أخرى لم أفهم كيف سنقوم بتوظيف الذكاء العاطفي في داخل غرفة الصف، ولكن عندما قرأت عدداً من المقالات، أصبح لدي تحدٍّ وتصميم على الاستمرار في هذه التجربة.

تباينت ردود فعل من حولي عن المشروع ما بين مشجع ومستهزئ. . . " . . . ما شاء الله طلابنا بارعون ولديهم ذكاء أكاديمي عال ولا ينقصهم إلا تطوير الذكاء العاطفي " . . . عندما سمعت هذه العبارة بدأت الأفكار تدور في رأسي وبدأ الصراع، خصوصاً أن مدركاتي لم تكتمل بعد عن الموضوع حتى أدافع عنه.

ساورني القلق والخوف من الفشل، وأحياناً كانت نفسي تطالبني بالانسحاب، ولكن شيئاً داخلياً كان يرفض هذا الأمر، ويطلب مني الاستمرار فيه من أجل إقناع الآخرين بأنه لا يوجد شيء غير مفيد أو غير مجدٍ دون أن نجربه. وفعلاً، قررت الالتزام بالمجموعة والاستمرار باللقاءات حتى أحصل على معلومات إضافية تساعدني في الدفاع عن هذه التجربة أمام بعض الزملاء عند فتح باب النقاش.

تمحور عملنا في هذه الخبرة على محاولة تنمية مهارات الذكاء العاطفي عند الطلاب من خلال المنهاج المدرسي، وذلك ضمن مستويات خمسة، هي:

1. الوعي بالذات والآخرين.
2. قبول الذات والآخرين.
3. تحمل المسؤولية الشخصية.
4. إيجاد معنى شخصي للتعلم.
5. تقدير الاستقامة والأخلاق.

كنا نقوم بقراءة المقالة التي تتحدث عن كل مستوى، ونقوم بمناقشتها، وبعد ذلك نقوم بصياغة أنشطة ملائمة لمنهاج العلوم للصف السابع الأساسي الذي وقع الاختيار عليه لتطبيق التجربة، ولا أدري لحسن حظي أم لسوء حظي وقع الاختيار على هذا الصف، فأنا لا أدرس سوى الصف الثالث الأساسي، وليس بإمكاني تطبيق هذه الأنشطة كباقي الزملاء في المجموعة. ولكن قلت في نفسي بداية بعد نجاح التجربة في الصف السابع، يمكن أن أعمل على تكرارها في الصف الثالث.

بعد خروجي من أحد اللقاءات في حزيران 2005، أخذت أفكر في البدء بالتطبيق مع طالباتي، مستخدمة أنشطة على غرار الأنشطة التي صممناها كمجموعة لتلائم منهاج العلوم للصف السابع، ولكن هذه المرة للصف الثالث. وهنا بدأ التحدي، أخرجت كتاب العلوم وتصفحته درساً درساً، وبعد محاولات عدة، قمت بإعداد خطة لتقسيم منهاج العلوم، حيث وزعت الوحدات على المستويات الخمسة، وكان التوزيع كما يلي:

الوحدة الأولى:

البذور والنباتات ← الوعي بالذات والآخرين

الوحدة الثانية :

الأرض	←	قبول الذات والآخرين

الوحدة الثالثة :

الماء من حولنا	←	تحمل المسؤولية الشخصية

الوحدة الرابعة :

الاتصال والتواصل	←	إيجاد معنى شخصي للتعلم

الوحدة الخامسة :

التكيف في البيئة	←	تقدير الاستقامة والأخلاق

لم تكن العملية سهلة، بل كان التحدي كبيراً، كيف تعد نشاطاً يناسب طالبات لم يتجاوزن تسع سنوات؟ كنت أعيد النشاط وأعد له أكثر من مرة، وكنت في بعض الأحيان أصاب بالإحباط إلى أن قرأت عبارة لـ Rosalynn Carter، وكانت تقول :

"**إذا ما ساورك الشك في مقدرتك على إنجاز شيء ما، فلن تستطيع إنجازه، يجب أن تمتلك الثقة في مقدرتك، ثم تكون حازماً بما فيه الكفاية للسير قدماً نحو تحقيقه**" . هذه العبارة أعطتني قوة دفع للأمام، وكأنها الوقود الذي كان يلزمني للتحرك في إعداد الأنشطة، وضعتها شعاري، وكنت كلما شعرت بالعجز أو الفشل قرأتها مرّة أخرى لأستعيد طاقتي وقدراتي .

بعد أن أعددت الأنشطة التي كانت من اجتهادي الخاص للفصل الأول، ترددت بداية في عرضها على المجموعة، وفي النهاية تشجعت فقمت بعرضها على الباحثين، وكالعادة رحبوا بالفكرة وقدموا لي الدعم والتشجيع، واعتبروها مبادرة ذاتية بجهد شخصي أبت صاحبتها إلا أن يكون لها دور في التطبيق، إضافة إلى المشاركة مع المجموعة في إعداد الأنشطة . وتبرعوا بإعطائي كاميرا لتوثيق الحصص التي سأطبق بها نشاطات الذكاء العاطفي .

طبقت الأنشطة وصورتها على مدار العام الدراسي . وكنت أقوم بعرض حصصي المصورة للمناقشة من حين لآخر . وبعد كل نقاش كنت أتلقى مزيداً من التشجيع على الاستمرار في التجربة . وبعد تأملي في هذه التجربة على مدار العام، لاحظت النتاجات التالية **في ثلاثة محاور** :

كان المحور الأول شخصياً يتعلق بي كمعلمة، إذ أصبحت علاقتي بالطالبات قوية، وقد أكد لي ذلك ما سمعته من ملاحظات من قبل المديرة والأهالي والمعلمات وحتى المشرف . كما لم يعد همي أن أعطي المادة وأخرج، بل على العكس، أصبحت أشرح وأناقش واستمع لردود فعل الطالبات، وكنا نتحدث عن الشعور والأخلاق وتحمل المسؤولية ونربطها بالمادة . وأصبحت أفسر بعض سلوكات الطالبات التي تحدث في داخل غرفة الصف قبل أن أحكم عليهن بأحكام سيئة وظالمة .

كما تغيرت معتقداتي عن مادة العلوم، حيث كنت أنظر لها على أنها مادة مجردة جامدة تخلو من الحيوية، مجرد حشو أدمغة الطالبات بمعلومات هدفها الوحيد هو الحفظ للاسترجاع، ولكن بعد هذه التجربة أيقنت أنه بالإمكان جعل مادة العلوم مادة حيوية ومرنة، ويمكن ربطها بالحياة اليومية للطالبات .

كما يمكن من خلال مادة العلوم أن أعلّم أشياء كثيرة كالتعبير والرسم والموسيقى والتربية المدنية والتربية الإسلامية واللغة العربية .

كما أن نظرتي إلى الطالبات تغيرت، إذ كنت أعتقد أن طالبات بهذا العمر لا يستطعن التعبير عن أنفسهن، ولسن بحاجة إلى الوعي بالذات، وقبول الذات، وتعلم حل المشكلات، كنت أفكر أن هدف التعليم لهن هو اكتساب مهارات القراءة والكتابة والرياضيات، ولكن كل هذه الأفكار تبددت وظهرت بدلاً منها أفكار جديدة اتجاه الطالبات اللواتي أثبتن من خلال هذه التجربة أنهن مثلهن مثل طالبات الصفوف العليا قادرات على تعلم واكتساب أي شيء جديد، إذا ما كانت لديهن دافعية ومحفزات .

أما المحور الثاني، فقد تعلق بالطالبات، اللواتي تغيرت فكرتهن عن مادة العلوم التي كانت تعتبر مادة جامدة مجردة صعبة ليس لها علاقة بالطالبات، أما الآن فقد أحببن حصة العلوم، وكن دائماً يسألنني متى ستأتي حصة العلوم التالية، ولماذا لا نحول حصة الفن والرياضة إلى علوم .

أصبحت سلوكات الطالبات أقل حدة من السابق، فقبل أن تقوم الطالبة بالرد على أي طالبة أخرى تقوم بالعد إلى العشرة لتفكر إذا كان جوابها مناسب وسليم، وهل سيؤذي زميلتها أم لا؟ كما أنهن أصبحن أقل عدوانية بالصف، وأقل شغباً وكلاماً لا فائدة له، كما ساعدت الأنشطة في التقليل من الضرب والكلام السيئ والفتنة، حيث أن الطالبات، وبسبب الوعي بالذات وبالآخرين وقبولهم، أصبحت سلوكياتهم السيئة قليلة، وتغيرت إلى سلوكيات إيجابية، حتى أن الطالبات أنفسهن كن يصححن بعضهن البعض بإعطاء النصائح مثلاً : حرام نفتن عن بعض، مش لازم نسخر بالناس لأنو بعدين ربنا بخلينا زيهم وبصيروا يسخروا منا، شكلك ما عديتي للعشرة، عندما تتحدث طالبة بكلمات سيئة .

أصبحت مقدرة الطالبات على التعبير عن أنفسهن أفضل بكثير، حتى أن مديرة المدرسة قارنت بين الشعبتين فلاحظت أن طالباتي اللواتي خضعن لأنشطة الذكاء العاطفي كن أكثر جرأة على الحديث وعلى إعطاء الإجابات عن أسئلة المديرة دون خوف، والفضل يعود طبعاً لأنشطة الذكاء العاطفي التي تسمح للطالبات بالتعبير عن أنفسهن بأريحية دون خوف ودون قيود . هذا وقد ساعدت هذه الخبرة على اكتشاف بعض المواهب الموجودة لدى الطالبات كالتمثيل، والغناء، وصناعة الأشكال، وبخاصة من خلال العنصر الرابع : إيجاد معنى شخصي للتعلم .

من جهة أخرى أصبحت علاقتي مع الطالبات قوية جداً، فأصبحت الطالبات يتحدثن معي في كل الأشياء التي تهمهن، حتى أن بعض الطالبات كانت تتجرأ وتخبرني أني مخطئة بطريقة غير مباشرة، وهذا يعود إلى الشعور بالأمان والحب من قبل الطالبات اتجاهي.

وبالنسبة للمنهاج فقد ساعدت الأنشطة على توصيل بعض المفاهيم الصعبة وحفظ بعض الأشياء كأجزاء النبتة، وأجزاء الزهرة. كما أن وجود هذه الأنشطة كان يخدم الطالبات ذات المستوى الضعيف أكاديمياً، حيث أن هؤلاء الطالبات أصبحن يشاركن في الأسئلة التي تتحدث عن الشعور والرأي، وهذا شيء جعلني أهتم بهذه الأنشطة في أغلب المواضيع، لأتيح الفرصة أمام هذه الفئة لتأخذ حقها في المشاركة.

لم تخلُ هذه الخبرة من بعض السلبيات، فبعض النشاطات تستغرق وقتاً طويلاً، ما لم يتح الفرصة لكل الطالبات في التعبير عن أنفسهن.

وهناك سلبية أخرى هي أن الطالبات أصبحن يتجرأن في السؤال عن أشياء شخصية، ما تطلب مني وضع حدود لتدخلاتهن.

أود أن أنهى بالإشارة إلى أن هذه الخبرة أحدثت تغييراً في شخصيتي، وكذلك في طريقة تدريسي وأيضاً في تفكيري.

جمانة هندي
معلمة في مدرسة بنات دير عمار الأساسية

من المؤتمر التربوي الثاني.